قراءة في كتاب: جماعة العدل والإحسان قراءة في المسارات

المؤلف: محمد ضريف

الناشر: المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي

الطبعة: الأولى، المغرب، ١٩٩٥م.

عبد الرحمن جاسم

يبدأ الكاتب ومنذ السطر الأول من الكتاب بطرق إشكالية من أهم إشكاليات المجتمع الإسلامي عموماً، والجماعة موضوع الكتاب خصوصاً، فيتساءل: هل الفعل السياسي والفعل الديني متمايزان كما يقول اللائيكيون أم أنهما فعل واحد كما يؤكد الإسلاميون؟

فالكتاب الذي بين أيدينا هو محاولة للتعريف بجماعة العدل والإحسان المغاربية عموماً والمغربية خصوصاً، خاصة وأنها مغربية بامتياز. ذاك أن أغلب أعضائها هم من المغاربة وأن انتشارها الرئيس والأساسي هو في المملكة المغربية، وإن كان لها بعض الفروع خارج المملكة المغربية.

يقسم الكاتب كتابه -الدراسة كما يسميه- إلى ثلاثة أقسام أساسية:

القسم الأول: مسار بناء الجماعة

القسم الثاني: مسار تشكل الخطاب

القسم الثالث: مسار تحديد الرهانات

القسم الأول: مسار بناء الجماعة:

يقسم الدكتور ضريف هذا القسم إلى فصلين يشكلان المرحلتين الأساسيتين في رسم المسار الذي مشت عليه جماعة العدل والإحسان.

أ- مرحلة الاختمار ١٩٧٢-١٩٧٩

ب- مرحلة التجسيد ١٩٨٠ - ؟؟

أ- مرحلة الاختمار: ١٩٧٢-١٩٧٩

في الفصل الأول من هذا القسم ينهج ناحية البدايات وكيف أن كثيراً من أدبيات الجماعة تشير إلى أن بداياتها ترجع إلى ١٩٧٤م سنة إرسال الشيخ عبد السلام ياسين رسالة «الإسلام أو الطوفان» إلى الملك المغربي، واعتُبر هذا العمل -رغم أنه عمل فردي إلى حد كبير- أول عمل رسمي تقوم به الجماعة، تبعاً لأحد بياناتها[1]، لكن البيان نفسه يعود ويشير إلى العام ١٩٨١م، بوصفه العام الذي شهد الولادة الحقيقية لهذه الجماعة بقيادة شيخها ومرشدها الشيخ عبد السلام ياسين. ولكن الكاتب د. ضريف يركز هنا على المراحل التي سبقت العمل السياسي الجماعي المباشر، فيتحدث عن تجربة الشيخ ياسين بدءاً من كتابي «الإسلام والدولة» عام ١٩٧٢ و«الإسلام غداً» العام ١٩٧٣م، انتقالاً إلى العمل المباشر وتحديد المنهجية المناسبة والأسلوب الفاعل من خلال تقعيد العمل الإسلامي مرتكزاً كثيراً على تجربتي أبي الأعلى المودودي و محمد عبده الفاشلتين مقارنتين بتجربة الشيخ حسن البنا الناجحة، موجهاً اهتمامه لمسألة الصحبة، معتبراً أن أسلوب الصحبة والصحابة والجماعة هي أساس التجارب الإسلامية الناجحة.

١- واقع الإسلام: كتاب «الإسلام بين الدعوة والدولة» ١٩٧٢:

ثنائية الدعوة والقيادة الجهادية:

يفند الشيخ عبد السلام ياسين في هذا الكتاب، كما يقول الدكتور ضريف، أطروحة الفصل بين الدين والدولة، فهو «رجعة جاهلية»[٢] الجمع بين القيادة والدعوة مستندين إلى مثال النبي محمد(ص) الذي جمع بين الدعوة(الدين) والقيادة (الدولة) وهو الأسوة والمثال. والعمل برأي الكتاب هو سيد الأشياء ولابد من تغيير ما في القلوب بالعمل وليس بالقول فحسب.

٢- واقع المجتمع: الإسلام غداً»١٩٧٣:

وهو الكتاب الذي تلا الكتاب السابق، وفيه يتساءل المرشد الشيخ ياسين هل المجتمع الذي نحن فيه جاهلي، أم «مفتون»، ومنذ البداية يؤيد الشيخ ياسين الرأي الثاني فمجتمعنا فيه فتنة وليس جاهلية، معارضاً رأي أبي الأعلى المودودي الصادر في كتابيه «الإسلام والجاهلية» و «المصطلحات الأربعة الأساسية في القرآن» ناعتاً المجتمعات الغربية وأغلب المجتمعات الإسلامية بذلك، وكذلك سيد قطب الذي سار على النهج نفسه واعتنق المفهوم ذاته.

فالشيخ عبد السلام يقول: «مفتونون نحن غير جاهليون»، وبأن المجتمعات الإسلامية المعاصرة ليست جاهلية بل تعيش زمن الفتنة.

المرحلة الثانية: ما بعد الكتابين:

كانت الجماعة لا تزال في مرحلة اختمار الأفكار وبدا أن هناك مشكلتين رئيستين ستواجههما الجماعة عاجلاً أم آجلاً:

أولاً: المهمة المنهجية المتمثلة بتقعيد العمل الإسلامي

ثانياً: المهمة السياسية المتمثلة بتوحيد العمل الإسلامي

فقد قرأ الشيخ عبد السلام ياسين تجارب القادة الإسلاميين الآخرين، وحرص على عدم تكرار الأخطاء التي وقعوا فيها، وخلُص إلى أهمية تقعيد العمل الإسلامي وبنائه على أساسين: فكري وتربوي.

أ- الأساس الفكري

«فرجال الدعوة الأجلاء من أمثال محمد عبده والمودودي وسيد قطب...يوصون بالتمسك بالسنة والسير على هدى النبوة، لكنهم لا يشيرون لنا كيف نفعل ذلك»؛ لذلك فإن الشيخ عبد السلام يقترح شعار «فكر يسبق الممارسة»، وهو فكر محكوم بضوابط ثلاث:

- الرجوع إلى الفطرة
- الانفتاح على المحيط
- الشمولية

ب- الأساس التربوي:

وبالعودة إلى الأساسين الذين تحدث عنهما الشيخ عبد السلام في البداية، فالأساس في أي عمل هو الجماعة أو الصحبة. ويتحدث بإسهاب عن تجربتي أبي الأعلى المودودي وسيد قطب الذين أهملا تماماً فكرة الصحبة «فالطاقة النورانية التي تقتبس من المصحوب المتبوع وتقلب عقل المريد الصاحب»[٣]، مقارناً التجربتين بتلك التي

للإخوان المسلمين في مصر ومرشدها حسن البنا الذي استطاع تجميع جماعة مجتهدة ومحبة ومتآلفة حول فكرة واحدة.

في النهاية يختزل د. ضريف رأي الشيخ بفكرتين أساسيتين:

على المستوى الفكري: لا حركة جهادية دون نظرية في الجهاد.

على المستوى التربوي: لا حركة اسلامية بدون تربية إيمانية.

الفصل الثاني: مرحلة التجسيد:

ينتقل بنا الفصل الثاني من هذا الكتاب، إلى المرحلة الثانية من عمل الجماعة والمستمر لغاية اليوم وهي مرحلة تجسيد الأفكار التي اختمرت في المرحلة السابقة و تطبيقها على الأرض من خلال علاقة مثلى بالجماهير.

وقد بدأ الشيخ عبد السلام بعلاقة ممنهجة مع النخب المثقفة في المغرب أتبعها بإعلانه إنشاء أسرة الجماعة في العام ١٩٨١م، كأول تعبير تنظيمي لجماعة العدل والإحسان متأثراً باعتبارين أساسين وهما: ضرورة النزول إلى أرض العمل المنظم، و الإخفاق في توحيد فصائل الحركة الإسلامية في المغرب. ثم عاد بعد ذلك وأتبع إنشاء أسرة الجماعة بجمعية الجماعة كثاني تعبير تنظيمي ثم جمعية الجماعة الخيرية التي عاشت من ١٩٨٣ إلى العام ١٩٨٥ وصولاً إلى العام ١٩٨٧ حيث رفعت الجماعة شعار العدل والإحسان وبقي مرتبطاً بها لغاية الآن.

ويشرح د. ضريف التكوين الإداري التركيبي للجماعة من خلال شرحه لقوانينها الداخلية من حيث دور كل من المرشد العام (المسير) وعدد الأجهزة العاملة فيها ومسؤوليات كل منها. وقد أدى هذا النظام المركب بعناية والمضبوط بدقة بالغة إلى تخوف الأجهزة الأمنية المغربية منها، والحق يقال: إن أي جماعة تقوم على هذا الترتيب والنظام وتربط النظام السياسي بالأمور الدينية تتعرض للملاحقة القضائية والأمنية من قبل السلطات الحاكمة، ولم تشذ المغرب ولا الجماعة عن ذلك. فاعتقل شيخها بداية بعد رسالة وجهها إلى ملك البلاد في ١٩٧٤ (رسالة الإسلام أو الطوفان) ولمدة ثلاث سنوات ونصف دون محاكمة ثم مرة ثانية في ١٩٨٣ لمدة سنتين، ثم وضع في الإقامة الجبرية في العام ١٩٨٩، وكذلك اعتقل مجلس الإرشاد في الجماعة في ١٩٩٠ وسجن كل أعضائه لمدة سنتين مع غرامات مادية (عشرة آلاف درهم مغربي لكل واحدٍ منهم). وفي النهاية حظرت الجماعة نهائياً في العام ١٩٩٠، ولا تزال لغاية الآن، ومنع الشيخ عبد السلام ياسين من إلقاء خطب الجمعة، ومن صلاة الجماعة، ومنعت الصلاة خلفه بحجة أنها من التجمعات غير القانونية.

القسم الثاني: مسار تشكل الخطاب:

يقسم د. ضريف هذا القسم إلى مقاربتين:

- خطاب محددات النشأة.
- خطاب محددات الصيرورة

١- خطاب محددات النشأة:

ففي خطاب محددات النشأة يقدم صورة

عامة لرؤية الشيخ عبد السلام ياسين لفكرة الفتنة، فيشرحها لغوياً ودينياً مرتكزاً على رؤية الشيخ موضحاً التوجه العام عنده. ويوضح تجليات الفتنة بظهور القوميات العلمانية والديمقراطيات اللاإسلامية والحركات الحزبية المتعددة. فالديمقراطية التي ينشدها الكثيرون في مجتمعاتنا هي صورة أخرى من تجليات الفتنة، فهي تستمد روحها من «اللائيكية» ويجسد المجتمع المدني فضاءها[٤]. والديمقراطية إذا كانت رجوعاً إلى الشعب فهي أمر يريده الشيخ عبد السلام ياسين لكن الديمقراطية التي يطالبونها تكاد تكون دائماً بغرض التخلص من الدين والتنصل منه، وهكذا تبدو معالم الفتنة والافتتان واضحة في الديمقراطية.

ينتقل الكاتب بعد ذلك إلى شرح الشرط الثاني من خطاب محددات النشأة متمثلاً في إرادة «اقتحام العقبة».

فإرادة اقتحام العقبة تبدو جلية للعيان من خلال كتاب الشيخ ياسين «مقدمات في المنهاج» الصادر في سنة ١٩٨٩م، فإرادة اقتحام العقبة هي تحرك إرادي «تتعرض له العقبة فتعانقه ويغالبها حتى يتم الاقتحام»[٥]. وإذا تحدثنا عن إرادة «اقتحام العقبة لابد من أن تبنى على تأصيل قرآني وتبيان للجسر الحركي». وهي مراحل أساسية تجمع بين الأفراد وتوصل بينهم، بداية يتحدد الإطار للعمل الفكري الواعي والمنطقي المنهج عبر الأساس المتين–القرآن، وعبر عملٍ متواصلٍ مسبوك ومضبوط بطريقة متكاملة وواعية عبر نقل الإسلام من الإسلام الفردي إلى الإسلام الجماعي. ففردية الإسلام تودي به ناحية الفشل؛ لأن الإقتحام لا يكون إلا لجماعة، والجماعة تفضي إلى دولة والفردانية تحول دون اكتمال الإيمان، فالمؤمن الكامل هو المؤمن المتواجد داخل جماعة.

ولأن الجماعة هي أساس كل شيء، لابد إذن من روابط تجمع هؤلاء الأفراد وتؤدي للحمة بين أوصالها، وضوابط الجماعة بحسب الشيخ عبد السلام ياسين هي ثلاثة:

١– **الناظمة العاطفية:** وهي حب الله والجماعة تتصل بحب الله وتمنح الجماعة طاقة ولا تقهر ولا تغلب.

٢– **الناظمة السياسية:** وهي الشورى ولها ضابطان شرعي بأن تكون دينية، وتنظيمي بأن تؤخذ من الأشخاص المناسبين وترفض إذا كانت هدامة وغير مفيدة.

٣– **الناظمة السلوكية:** وهي الطاعة، طاعة القاعدة للقيادة، وطاعة الجماهير للمسيِّر.

٢– خطاب محددات الصيرورة:

وفي هذا الفصل يشرح د. ضريف رؤية الجماعة وشيخها عبد السلام ياسين للمستوى العلائقي المطروح مع الجميع. فالجماعة تحدد علاقتها بالآخرين من خلال العلاقة مع مكونات التناقض الرئيسي ومكونات التناقض الثانوي.

ويبدأ الكاتب بشرح رؤية الجماعة للعلاقة

بمكونات التناقض الرئيسي، بدءاً بالسلطة التي نادى الشيخ ياسين بإحياء نظام النصيحة للحاكم وتوجها برسالته المعنونة «الإسلام أو الطوفان» التي وجهها للملك في ١٩٧٤. ويحاول الكاتب هنا إضفاء شرعية معينة على الرسالة من خلال إقحامه قسما من نص الرسالة داخل الكتاب/ الدراسة مع تأكيده بأنها ليست أبداً محاولة انقلابية، إنما هي محاولة ترشيد تطرح تصوراً لتغيير الأوضاع من داخل النظام وبواسطته. «وهي لا تطرح بشكل قطعي إرادة التغير من خارج النظام بل تؤمن بإمكانية التغير من داخله»(٦).

بعد ذلك ينتقل الكاتب إلى رؤية الجماعة للعلاقة مع الأحزاب السياسية المغربية فالجماعة تقبل الأحزاب السياسية وتعددها في ظل الأحوال السائدة وترفضها بعد قيام «القومة» كما تسميها، فالأحزاب القائمة شاخت ولا قيمة لها ولا لصدقها أمام الجماهير، فهي تكذب وبشكل متواصل، ثم إن الشعب سيحكم في تلك المرحلة؛ أي أنه ليست بحاجة لممثلين من هذا النوع.

في الخطوة التي تلي تلك العلاقات وبعد فروغها (أي جماعة العدل والإحسان) من العلاقة مع مكونات التناقض الرئيسي تنتقل إلى مكونات التناقض الثانوي، إنها العلاقة مع الجماعات الإسلامية والتجمعات المشابهة الأهداف، فوجوب عدم الخلاف والصراع مع هذه الجماعات محسوم فالمطلوب هو «وحدة العمل... لخدمة هدفٍ واحد هو: إقامة شرع الله»(٧)، وكذلك هي العلاقة بالعلماء، فتدعوهم الجماعة إلى فك ارتباطهم بسلطة الفتنة من خلال الجرأة في قول الحق والجهر به ونبذ حياة الترف والزيف والادعاء.

العلاقة مع الذات:

ولأن خطاب محددات الصيرورة لا يضم فقط العلاقة مع الآخر، بل هو يطال تحديد العلاقة بالذات وهو بحد ذاته يكون على مستويين سياسي وأيديولوجي.

فعلى المستوى السياسي تطل بالجماعة علنية الممارسة السياسية من خلال الجهر بالدعوة والتعريف بالمشروع الإسلامي ومحاربة الهامشية والاستعداد لدفع الثمن، كذلك هناك القبول بالمشاركة السياسية.

وعلى المستوى الأيديولوجي، ترفض الجماعة ومنذ اللحظة الأولى فكرة المفاصلة كما يشير د. ضريف، فالمفاصلة هي تكفير الناس واللجوء إلى العنف، فيشرح رؤية الجماعة للمبدأ (أي التكفير) وعلى أي أساس يتم التكفير وما هي القواعد المرتبطة بذلك. وفي النهاية يقدم مفهومها وموقفها الراد على الأمر وهو رفض المفاصلة وتقديم بديل عنه هو «الزيال» وهو مصطلح قرآني يقدمه الشيخ ياسين، وهو يفيد نفس المعنى(٨).

كما تقول الجماعة بمناهضة العنف، فيؤكد الشيخ ياسين «لن ندعو إلى عنفٍ أبداً»(٩)، مؤكداً أن الدولة الإسلامية لن تضطهد ولن تقتل أحداً في زمن الفتنة.

القسم الثالث من الكتاب: مسار تحديد الرهانات:

في هذا القسم يقدم د. ضريف رؤية الجماعة وطريقتها في التعامل مع الأحداث

العامة والشاملة. فالرؤية الإسلامية التي تحرك الجماعة كاملة ومتكاملة، فحيث إنها تشكل الأساس المنهاجي لتحرك المجموعة، حيث إن أي جماعة ترغب في البقاء متواجدة ومستمرة في الواقع المعاش، يجب عليها أن تراعي الظروف والبيئة المتعددة كما عليها أن تراعي حاجات المجتمع والأفراد.

ذاك كله يقودنا إلى سلسلة من الأساليب والأدوات والقوانين والضوابط التي تحاول جماعة العدل والإحسان أن تمزجها داخل عملها وتستعملها وإن كان بضبطٍ شديد والتركيز على مركزية القيادة وشورى العدل، كما يظهر وبوضوح جلي، التركيز على دور القيادة المركزية من خلال إيضاح فكرة أن أبرز الأمراض التي من شأنها وأد الحلم، هو عدم طاعة أولي الأمر.

يأتي بعد ذلك الفصل الثاني محملاً بالرهان الاستراتيجي من خلال بناء الخلافة على منهاج النبوية ويعتمد د. ضريف في هذا المجال على كتاب الشيخ عبد السلام ياسين الصادر عام ١٩٨٩ «نظرات في الفقه والتاريخ» وفيه يقدم الشيخ ياسين مرجعيتين للجماعة في سيرتها على المنهاج النبوي، أولهما شرعي من خلال الموعود النبوي؛ حيث إن السير يكون بهذا الهدي والتوجه متأسين به، من دون أي تغيير أو تحوير ثم تأتي المرجعية التاريخية من خلال الانكسار التاريخي والتعلم من تجارب الآخرين والرؤية والمتابعة التاريخية الشاملة لتجارب الأقدمين مع دراسة وتمحيص.

يبقى السند السلوكي وهو كما ترسمه الجماعة «جند الله» وهي الرؤية الخاصة لتجمع يؤدي نهاية إلى الدولة الإسلامية، والمجتمع المتكامل الذي تسعى الجماعة لتكوينه. ولا تتحقق جند الله إلا بمرات يسعى المسلم العادي للوصول إليها من خلال خصالٍ عشرة أساسية يتحتم وجودها لكي يستحق أن يكون من جند الله أم لا.

بلورة الرهان:

وبعد أن ينتهي د. ضريف من شرح رؤية الجماعة لسند الرهان ينتقل إلى بلورته وتطبيقه أرضاً عبر أساليبها ووسائلها التي استفاضت سابقاً في شرحها وتوضيحها بدءاً من القومة انتهاءً بتوحيد الدول الإسلامية، متحدثاً عن المراحل والمعالم الأساسية وشرط وبنية الخلافة التي ترشحها الجماعة مركزاً على تفاصيل وتراكيب هذا النظام الإسلامي المتكامل.

خاتمة

الكتاب الذي بين أيدينا هو محاولة لرسم صورة شاملة وعامة عن جماعة من أهم الجماعات الإسلامية في المملكة المغربية، والتي كان لها ولمرشدها العام عبد السلام ياسين أثرٌ كبير سواء على الشارع أو الوضع الإسلامي العام هناك. ولا يخفى على أحدٍ من قارئي الكتاب أن هناك جهد كبيراً بذل لتقديم هذه الدراسة الشاملة، إلا أن هناك عدة تساؤلات تتكون ولا تحصل على إجابات.

فالسؤال الأول نحمله منذ عنوان الكتاب، فالكاتب عنونه بـ«جماعة العدل والإحسان قراءة في المسارات»، ولكن الأمر لم يبد لنا جليا، فهل قصد بالقراءة هو مجرد التعريف والمضي قدماً، أم أن المقصود هو القراءة المتأملة الواعية؛ ولأن الدكتور ضريف أستاذ في العلوم السياسية، ومتعمق في المجال، وكونه عايش وعاصر تجربة الجماعة ككل، فقد كان مستغرباً منه وبشدة مسألة أنه لم يقرأ خلفيات الأمور والأحداث داخل الكتاب.

هذا من جهة، من جهة أخرى، فإن الكتاب ركز وبشكلٍ كبير على مرشد الجماعة الشيخ عبد السلام ياسين مقللاً وإلى حدٍ كبير دور أصحابه ورفاق دربه، ذاكراً إياهم لماماً، والمفارقة في هذا الشأن فريدة للغاية، فالشيخ ياسين نفسه يعزو فشل كثير من الحركات الإسلامية إلى افتقادها للصحابة الجيدين. وإذاً أفلا يستحق نواب وصحابة وزملاء (أو مسيري الجماعة الآخرين) القليل من وقت وأوراق الدكتور ضريف؟

الهوامش

(١) محمد ضريف، جماعة العدل والإحسان، منشورات المجلة المغربية لعلم الإجتماع السياسي، ص ١٩٧، الملحق.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٧) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٣٠.